خطاب الأستاذ الدكتور محمد بديع الكسم

في حفل استقبال الأستاذ جورج صدقني

أيها الحفل الكريم .

لقد أسعدني حقاً أن كلفني مجمع اللغة العربية الموقر استقبال العضو العامل الجديد الأستاذ جورج صدقني . والأستاذ صدقني صديق قديم عرفته منذ زمن بعيد قريب معاً ، منذ ثلاثة وأربعين عاماً عندما عينت مدرساً للفلسفة في اللاذقية . وإن فاتني أن ألقاه وهو على مقاعد الدراسة ، لكونه أنهى المرحلة الثانوية قبيل مباشرتي العمل ، فقد كنت ألقاه بين الحين والآخر في مدينته الجميلة . وإني أذكر جيداً أن نظرته إلى التفكير الفلسفي كانت ، منذ ذلك الحين ، عميقة الاتصال بهموم الحياة القومية وبالتطلع الدائم إلى نهضة أمتنا العربية .

وعندما عُينت في جامعة دمشق توقعتُ أن أراه منتسباً إلى قسم الفلسفة ، بعد أن لمست شغفه الشديد بمتابعة هذا الأسلوب من التأمل والعمل . ولكني علمت أن ظروفاً مادية صعبة دفعته إلى الالتحاق بالتعليم الابتدائي مدة عامين . ثم ما لبث أن نجح في مسابقة حكومية أوفد بعدها لدراسة الفلسفة في جامعة دمشق . وعند ذلك أحس بأنه وجد طريقه المفضل .

لن أتحدث عن مرحلة دراسته الجامعية . ويكفيني أن أشهد بأنه كان متفوقاً لامعاً يمثل الأمل العريض لمستقبل الأجيال العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للأستاذ صدقي اهتمامات متنوعة ابدأ بالإشارة إلى كتب وبحوث نقلها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية . وأول ما ترجم كتابٌ لكارل يسبرز بعنوان مدخل إلى الفلسفة . والكتاب مؤلف من مجموعة من الدراسات عرض فيها يسبرز خصائص الفلسفة الوجودية بمعناها الإنساني والمنفتح على ارتباط الفرد بالعلو ،أي بما يتجاوزه ويضعه وجهاً لوجه أمام مسؤوليات التحرر وتحقق الذات تجاه المصير . ويمتاز الكتاب بالوضوح والسهولة كما تمتاز الترجمة العربية بالدقة وجمال التعبير .

والكتاب الثاني لفرانسوا شاتليه عن فلسفة هيغل . وهو كتاب يشهد له الباحثون بعمق الدراسة وبطابعها الشامل . ولا شك أن اطلاع القارئ العربي على مذهب هذا المفكر العالمي يضعه أمام منبع أساسي من منابع الفكر المعاصر في صوره المختلفة .

وكتاب ثالث ممتاز ترجمه الأستاذ صدقي هو كتاب لجان هيبوليت بعنوان « دراسات في ماركس وهيغل » . ولا شك أن المؤلف هيبوليت قد كان راعياً للدراسات الهيغلية والماركسية الكثيرة في ميدان الفكر الفرنسي .

الكتاب الرابع كان لروبينيه عن الفيلسوف جان جوريس . وكلنا يعرف أن جوريس قد ربط ربطاً وثيقاً بين الفلسفة النظرية وبين الاشتراكية النابعة من النزوع الديموقراطي ومن النظرة الأخلاقية .

والكتاب الواسع والغني فعلاً هو لجان جاك شوفاليه عن أمهات الكتب،السياسية وفيه عرض واضح ودقيق لأفكار مكيافلي ولوك ومونتسكيو وفيشته وتوكفيل وماركس وموراس وسوريل ولينين . وهو كتاب استعين به في التدريس بالمعهد العالي للعلوم السياسية .

أما البحوث التي نقلها الأستاذ صدقي فأهمها لبول ريكور الفيلسوف الفرنسي المعاصر والتي تدور حول فكرة المفارقة السياسية وفكرة العلاقة بين القول والعمل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأحب أن أشير هنا إلى مسألة فيها طرافة ودقةُ ملاحظة تتصل بمفهوم الأمة في اللغات الأجنبية وفي اللغة العربية . فقد كتب الأستاذ صدقي يقول : « لقد رأى المترجمون أن كلمة Nation تقابلها كلمة (أمة) في اللغة العربية . هذا صحيح ، أو ليس خطأ على الأقل . ولكن الخطأ حصل عندما ظن المترجمون أن كلمة Nation تعني (أمة) دائماً ، وفي كل الأحوال ، وأنها لا تعني شيئاً آخر ، في حين أن المطلعين على خفايا اللغة الفرنسية يعرفون أنها ، في كثير من الأحيان ، تعني (الأمة – الدولة) ... أو الأمة التي أصبحت دولة . وعلى سبيل المثال : ان اسم منظمة الأمم المتحدة باللغات الأجنبية يدل على أنها مؤلفة من Nations فترجم اسم المنظمة إلى العربية على مألوف العادة ، فقيل إنها منظمة مؤلفة من أمم ». ولا يخفى على أحد... أن عضوية المنظمة لا تُمنح للأمم بل للدول . إن لغتنا العربية تفصل مفهوم الأمة عن مفهوم الدولة فصلاً تاماً ... ذلك أن الأمة العربية مجزأة إلى دول متعددة .

ومن الأمور المتصلة بهذه المسألة أن الأجانب ترجموا كلمة « العروبة » ترجمات مختلفة أدت إلى حدوث نوع من الالتباس . فمنهم من ترجمها بكلمة Pan – Arabisme . وأرجح الظن أنهم ترجموها على هذا النحو مدفوعين بنيتهم السيئة في الاساءة إلى معنى العروبة ، لأننا لو أعدنا ترجمة هذه الكلمة مرة أخرى إلى العربية ، لما وجدنا لها مقابلاً أفضل من « النزعة التوسعية العربية » . ومنهم من ترجمها بكلمة Arabisme لكي يخلّصها من صفة النزعة التوسعية . ولكن هذه الترجمة مع ذلك ظلت تواجه مشكلة حقيقية : فهي – فضلاً عن أنها لا تؤدي من معاني العروبة إلا المعنى الحركي – توحي للقارئ الأجنبي بأنها نزعة توسعية أيضاً ، لأنها تذكر بالنزعة الجرمانية Germanisme . والتي عانت الشعوب الأوربية منها الأمرّين . وفي الآونة الأخيرة بدأت بعض الأوساط تستخدم كلمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

Arabité للدلالة على معنى « العروبة » ... وفي رأينا أن هذه الكلمة أفضل من غيرها ... لأنها تخلصها في نظر الأجانب من سمة التوسع والعدوان المزعومة ... ولكن هذه الترجمة تعاني من نقص أساسي هو عجزها عن التعبير عما تحمله العروبة في طياتها من معنى حركي . باعتبارها حركة نضالية تحررية . ثم ينتهي إلى القول : « إن العروبة لا تعبر عنها تعبيراً مطابقاً إلا كلمة العروبة » ، ولذلك فإني على مثل اليقين بأنه سوف يأتي يوم تنقل فيه هذه الكلمة إلى اللغات الأجنبية بلفظها كما هو لكي تعبر عن نفسها بنفسها » .

لقد أردت في ما أوجزته من أقوال الأستاذ صدقني أن أقدم أمثلة تدل على تدقيقه المتصل في ما ينقله إلى العربية ، وتدل في الوقت نفسه على نزوعه الدائم إلى إيضاح كل ما يتصل بمعنى العروبة .

الميدان الرئيسي الثاني الذي اهتم به الأستاذ صدقني هو ميدان الدراسات القومية . ففي سلسلة من البحوث ، نُشرت في مجلة المعرفة السورية كتابات عن قضية الوحدة العربية بين أنصارها وبين أعدائها . وأحب أن أشير إلى عبارة تكشف عن الطابع الشخصي لأفكاره ، ويقول فيها : « إنني أعلم علم اليقين أن ما قررته يخالف الفكر السياسي الوحدوي الشائع في نقطة أو في أكثر من نقطة . ولذلك لن استغرب إذا اصطدم بأفكار شائعة بلغت مرتبة القناعات المفروغ منها » . ومن أقواله إن المناضلين في سبيل الوحدة العربية لا يضعون شروطاً أمامها تتحول إلى عوائق .. إنهم يناضلون **لخلق** الشروط الملائمة .

فالموقف الوحدوي موقف ثوري ، وهو **فعل** إيجابي يخلق الظروف المناسبة لغاياته . وأكتفي هنا بإيراد عبارات موحية وذات دلالة ، منها أن الفكر لا يكون تقدمياً إن لم يكن وحدوياً ، وأن شيئاً من اللبس والغموض قد انتشر بتأثير ما يطرحه المثقفون الذين ينطلقون من مواقع لا قومية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويوجز الأستاذ صدقني حديثه عن أعداء الوحدة العربية في الخارج والداخل بقوله : « إن أعداء الوحدة كثيرون : الاستعمار والامبريالية والصهيونية العالمية والطبقات المستغِلة وأنظمة الحكم التي أفرزتها للمحافظة على مصالحها الرجعية والإقليمية والطائفية والعشائرية والعائلية والشعوبية الجديدة » .. ولكن هذا كلّه لا يدعو إلى اليأس . فهذه القوى المعادية كلها ليست من قوى المستقبل . إنها – دون استثناء – قوى سائرةٌ إلى الاندحار والزوال . ويبقى للوحدة العربية ، رغم كثرة أعدائها ، قوة أقوى من هذه الاعداء مجتمعين ، تبقى لها الجماهير الشعبية الواسعة العريضة .

أنتقل الآن إلى بحوث مبتكرة حاول فيها الأستاذ صدقني أن يقدم على مغامرة روحية كبيرة تتعلق بالعقلية العربية التي يمكن أن تستنبط من بنية اللغة العربية ومن عالم الأمثال العربية . ويؤسفني أني لن أستطيع ، في هذه الكلمة ، الإلمام بهذا الموضوع الجديد في تفرعاته ونتائجه . وسأكتفي بإيراد موجز أرجو أن يعطي فكرة سريعة عن جهود الأستاذ صدقني في هذا الميدان .

يرى الأستاذ صدقني أن الآراء المطروحة في مقالاته تدخل في مجال فلسفة اللغة . وهي تمثل محاولة لقراءة بعض الكلمات العربية قراءة جديدة ، تعتمد على العلاقات والروابط القائمة بينها . فهي جهد تحليلي استقرائي يهدف إلى استخلاص معاني الكلمات التي قد تكون غائبة عن الأفهام لطول العهد باستخدامها ... يقول الأستاذ صدقني : « اللغة العربية هي العقلية العربية ، وهي تصور العرب وفهمهم للوجود . فالمرأة ، مثلاً ، مؤنث المرء ؛ والمرء والمروءة من أسرة واحدة . فالمرء يكون كذلك في العقلية العربية إذا كان من أهل المروءة ، أي شهماً ذا نخوة . وكون المرأة مؤنث المرء يعني أن العقلية العربية تتصور المرأة إنسانةً ذات مروءة ، تسارع إلى نجدة الملهوف .. وكلمة « انسان » تنتمي مع الكلمات أَنِس وأُنس وأنيس وغير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك إلى أسرة واحدة . وهذا يعني أن الإنسان قد سمي إنساناً لأنه يأنس بغيره أو يؤنس غيره . أما العقل فيشير إلى الربط والترتيب . ويستخلص الأستاذ صدقي من تحليل مثل هذه الكلمات ، في اللغات المختلفة ، إلى أن العقلية اللاتينية أقرب إلى الفلسفة الواقعية . ذلك أن تصورها للوجود قائم على أساس أن العالم الخارجي مؤلف من علاقات وأن لدى الإنسان استعداداً لسبر أغوار هذه العلاقات ... وحسابها حساباً كمياً دقيقاً . وهذا التصور كان في أساس ما حققه العلم الحديث من تقدم ونجاح .. أما تحليل الكلمات العربية فيؤدي بنا إلى القول بأن العقلية العربية الأصلية (القديمة) أقرب إلى الفلسفة المثالية . ذلك أن هذا التحليل يوحي بأن تصورها للوجود قائم على أساس أن العالم الخارجي يبقى مفكك الأوصال ، تسوده الفوضى ، لولا تدخل الإنسان ، الذي يقوم بفعل « العقل » فيصبح العالم مرتباً مترابطاً منظماً .

ولو انتقلنا إلى كلمة واقع ، بالفرنسية Réalité ، لوجدنا أنها مأخوذة من الكلمة اللاتينية Res ومعناها الشيء ، واستطراداً ما هو موجود بالفعل . فهي بذلك حيادية لا تتضمن أي حكم من أحكام القيمة .

فالموجود بالفعل لا هو صاعد ولا هو هابط . أما الكلمة العربية « واقع » فهي تتضمن حكم قيمة وتعبر عن نظرة « سلبية » إلى الوجود الواقعي ... وهذا يعني أن الاختلاف بين النظرة العربية والنظرة اللاتينية إلى الواقع يكاد يبلغ حد التناقض .

والعقلية العربية لا تقيم هوة بين الواقع وبين المثل الأعلى ، بل هما في نظرها متواصلان . الواقع مقصر عن المثل الأعلى ، ولكنه صبوة دائمة إلى بلوغه . ثم إن المثالية في اللسان العربي ليست مثالية بالمعنى المعروف في تاريخ الفلسفة الغربية ، بل هي مثالية من نوع خاص تقيم تواصلاً بين المثال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والواقع ، فترى في الواقع قصوراً عن بلوغ المثال يجب تلافيه ، وهو أمر ممكن .

وعندما ينتقل الأستاذ صدقي إلى تحليل الأمثال العربية القديمة يورد عدداً كبيراً منها ، ويقرر أن الأمثال العربية تنفرد ، دون غيرها ، بأن لكل مثل قصة . ولهذا الأمر دلالة هامة ومغزى عميق . فهو يعني أن المثل الأعلى في الفكر العربي القديم ليس فكرة مجردة خالية من الحياة بل هو من صميم الحياة نفسها .

كل ذلك يعني أن الإنسان قادر على بلوغ المثل الأعلى في الواقع . ثم إن الفعل الماضي في المثل العربي يدل على أن واقعاً معيناً قد سما إلى مرتبة المثل الأعلى . فالمثل العربي بهذه الصيغة ليس حكمة ، وليس دعوة إلى الحكمة . إنه انبهار أمام بهاء الواقع المتسامي ، وقصته تهز النفس من الأعماق ، وتستنهض الهمم ، وتبشر بقدرة الإنسان على الارتقاء في مراتب الكمال .

أيها الحفل الكريم

لقد حاولت في كلمة الاستقبال هذه ، على الرغم من الصداقة التي تربطني بالأستاذ صدقي ، ومن الاهتمام المشترك بمسائل الفلسفة التأملية ، ومن الإيمان غير المشروط بأهداف الأمة العربية ، أقول لقد حاولت أن أتخذ موقف الحياد الموضوعي قدر الإمكان وألا أغفل عن أمور تبقى موضع جدل ونقاش .

لقد اجتهد الأستاذ صدقي وأخلص في اجتهاده ، وتحمس لقضايا أمته أجمل حماسة ، فأهلاً به في مجمع اللغة العربية طالباً للعلم الصادق ، وباحثاً عن أهداف عزيزة غالية ومفكّراً يملؤه النشاط الحي كما يملؤه الشباب (الشباب النسبي طبعاً) ومتطوعاً لخدمة اللغة العربية بكل ما يستطيع بل بأكثر مما يستطيع . حتى تتحد هذه اللغة مع الفكر العربي ذاته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإني لأذكر دائماً أنه كتب مرة يقول : « إني لأشهد بأن لسان العرب هو أجمل لغة على وجه الأرض . ولا عَجَبَ في هذا ، فهو لغة السماء أيضاً » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net